

المبحث الثاني: الاستقرار:

والاستقرارُ مُعْتَمَدُهُ مَبْدَأُ التَّعَايِشِ السَّلْمِيِّ، وَالْإِسْلَامُ قَدْ أَرَسَى قَوَاعِدَ وَأَسْسًا لِلتَّعَايِشِ مَعَ الْآخِرِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالْأَزْمَانِ وَالْأَمَاكِنِ، بِحَيْثُ يَصْبِحُ الْمُسْلِمُ فِي تَنَاسُقٍ وَانْتِمَاجٍ مَعَ الْأُمَّةِ الَّتِي يَعْيشُ وَسَطَهَا، وَضَمِنَتْ تِلْكَ الْقَوَاعِدُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ عَضْوًا بِنَاءً مُتَفَاعِلًا مَعَ مَجْتَمَعِهِ سِوَاءَ دَاخِلِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَوْ غَيْرِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَسِوَاءَ مَعَ الْمَوَاطِنِ الْمُسْلِمِ أَوْ غَيْرِ الْمُسْلِمِ، دُونَ تَفْرِيطِ مَنْهٍ فِي ثَوَابِتِ عَقِيدَتِهِ الدِّينِيَّةِ وَدُونَ اعْتِدَاءٍ مِنْهُ عَلَى حُرِّيَّةِ الْآخَرِينَ فِي مَخَالَفَةِ تِلْكَ الْعَقِيدَةِ، وَعَلَى نَهْجِ تِلْكَ الْأَسْسِ وَوَفْقَ هَذِهِ الثَّوَابِتِ يَمْضِي الْمُسْلِمُونَ قُدْمًا فِي رَسْمِ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، الَّتِي اسْتَوْعَبَتْ الْآخِرَ وَهَضَمَتْ حَضَارَتَهُ وَتَعَايِشَتْ مَعَهُ عَلَى مَرِّ التَّارِيخِ لَمْ تَعْقُ مَسِيرَتَهَا تَطَوُّرَ الْحَيَاةِ وَمَسْتَجِدَاتُ الْوَاقِعِ، وَظَلَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأُسْوَةَ الْحَسَنَةَ وَالْقُدْوَةَ الطَّيِّبَةَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، مُصَدِّقًا لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١].

وَالنَّظَرُ فِي سِيرَةِ وَمَسِيرَةِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجِدُ أَنَّهُ قَدْ تَرَكَ لَنَا نَمَازِجَ أَرْبَعَةً نَقْتَدِي بِهَا فِي التَّعَارُفِ وَالتَّعَايِشِ السَّلْمِيِّ مَعَ الْآخِرِ سِوَاءَ دَاخِلِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَوْ خَارِجِهَا:

الأول: نموذجُ مَكَّةَ، وَكَانَ الْمَقَامُ فِيهَا هُوَ مَقَامُ الصَّبْرِ وَالْمَقَاوِمَةِ السَّلْمِيَّةِ.

والثاني: نموذجُ بَقَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْحَبْشَةِ، وَالْمَقَامُ فِيهَا مُقَامُ الْوَفَاءِ وَالْمَشَارَكَةِ.

والثالث: نموذجُ الْمَدِينَةِ فِي عَهْدِهَا الْأَوَّلِ، وَالْمَقَامُ فِيهَا مُقَامُ الْإِنْفِتَاحِ وَالتَّعَاوُنِ.

والرابع: نموذج المدينة في عهدها الأخير، والمقام فيها مقام العدل والوعى قبل السعى.

ولا يخرج بقاء المسلم في مجتمعه وتعايشه مع كافة النظم والأديان عن هذه الصور الأربعة، ومن ثمَّ يجب علينا أن نعى حقائق هذه النماذج، ونُذكر أنها صالحة للاستفادة منها في كلِّ عصر حسب حاله، وأنَّ بعضها لم يَنْسَخْ بعضًا، بل تُنزل أحكامها بحسب الحال، حتى نستفيد من سنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته على كلِّ حال، إذ هو لنا القدوة والأسوة الحسنة، وقد أقامه ربه تبارك وتعالى في هذه المقامات كلها.

ومن الحقائق التي يجب علينا إدراكها أيضًا أن هذه المقامات أصبحت أساسًا أصيلاً في تكوين شخصية المسلم، وامتدت إلى أعماقه حتى صار الصبر والتعايش والانفتاح والتعاون والوفاء والمشاركة والعدل والوعى بالشأن والزمان، والسعى على بصيرة: جزءاً لا يتجزأ من تلك الشخصية، بل إن هذه المقامات هي أصل دين الله الذي ارتضاه للبشر عبر العصور وكر الدهور. ومن حكمة آل داود: أن يكون العاقل مُدركاً لشأنه عالماً بزمانه.

وفيما يلي نُفصّل شيئاً مما أجملناه في السطور السابقة:

النموذج الأول: مكة قبل الهجرة .

كانت مكة في مهد الدعوة الإسلامية تحت سيطرة المشركين من قريش، يغلب على سكانها عبادة الأوثان وممارسة الرذيلة من بغاءٍ وشربِ خمر وارتكاب الفواحش، وكانت الأخلاق أيضًا في عمومها

متدنيةً، فكان القوي يطغى على الضعيف ويأكل حقه، وكان السيد يقهر من تحت يده من عبيد وإماء ولا يحترم إنسانيتهم، وكان العربي يتعالى على العجمي، وكان الأبيض يفخر على الأسود.

ويصف لنا حالهم جعفر بن أبي طالب حينما خطب أمام النجاشي فقال: أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنَسِيءُ الْجَوَارِ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ. فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصَلَةِ الرَّجِمِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدَّمَاءِ وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ^(١).

كيفية عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول الوحي عليه، وكيف عاش أصحابه الأول من آمن بدعوته، أتركوا أشغالهم وحبسوا أنفسهم عن الناس وعن التجارة والسفر، أم هل كانوا يبيعون لأنفسهم ويشترون من أنفسهم فقط؟

ومن الذي رفض التعايش مع الآخر هل هم المؤمنون أم المشركون، ومن الذي فرض على الآخر حصارًا في شعب أبي طالب؟ إنها قريش... إنهم المشركون.

لَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَفْشُو فِي الْقَبَائِلِ اجْتَمَعُوا وَاتَّخَمَرُوا بَيْنَهُمْ

(١) مسند أحمد (مسند جعفر بن أبي طالب) ٢٨٦/٤ رقم (١٧٦٦).

أَنْ يَكْتُبُوا كِتَابًا يَتَعَاقدُونَ فِيهِ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَلِبِ ، عَلَى أَنْ لَا يُنَكِّحُوا إِلَيْهِمْ وَلَا يُنَكِّحُوهُمْ ، وَلَا يَبِيعُوهُمْ شَيْئًا وَلَا يَبْتَاعُوا مِنْهُمْ ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا لِذَلِكَ كَتَبُوهُ فِي صَحِيفَةٍ ثُمَّ تَعَاهَدُوا وَتَوَاقَفُوا عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ عَلَقُوا الصَّحِيفَةَ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ تَوْكِيدًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ .

ثم عدوا على من أسلم فأوثقوهم وآذوهم ، واشتد عليهم البلاء وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزالا شديدا .

وخرج من بني هاشم أبو لهب إلى قريش ، فظاهرهم ، وتركت خديجة دارها وانتقلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شعب أبي طالب رغم تجاوزها الستين ، وظل المسلمون محاصرين في شعب أبي طالب ثلاث سنوات ، حتى اشتد بهم البلاء وبلغ منهم الجهد ، فأكلوا ورق الشجر ، وسمع صراخ صبيانهم يتضاغون من رواء الشعب من الجوع . حتى كره عامة قريش ما أصابهم ، وأظهروا كراهيتهم لصحيفتهم الظالمة^(١) .

ولم يهجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة ، بل ظل يذهب إليها ويتعبد فيها لله الواحد قبل البعثة وبعدها ، ولم يمنعه وجود الشرك فيها عن ارتيادها .

فقد كانت قريش ترض أصنامها داخل الكعبة ومن حولها ، وكان عدد الأصنام ثلاثمائة وستين صنما ، وظلت هذه الأصنام موجودة حتى عام الفتح الثامن من الهجرة .

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٤٧ / ٢ .

يوم الفتح وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ نُسْبًا ، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ كَأَنَّ بِيَدِهِ وَيَقُولُ : (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) (جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ)^(١).

وعن ابن مسعود قال: والله لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى بالكعبة - أي عندها - ظاهرين آمنين، حتى أسلم عمر فقاتلهم حتى تركونا، فصلينا - أي وجهروا بالقراءة - وكانوا قبل ذلك لا يقرءون إلا سرا.
وعن صهيب قال: لما أسلم عمر جلسنا حول البيت جِلَقًا . فَطَفْنَا وَاسْتَنْصَفْنَا مِمَّنْ غَلِظَ عَلَيْنَا^(٢).

وقيل لعمر رضى الله عنه: ما سبب تسمية النبي صلى الله عليه وسلم لك بالفاروق؟ قال: لما أسلمتُ والنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مختفون قلت: يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: بلى والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم. فقلت: فقيم الاختفاء؟ والذى بعثك بالحق ما بقى مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإسلام غير هائب ولا خائف، والذى بعثك بالحق لنخرجن. فخرجنا فى صفين، حمزة فى أحدهما، وأنا فى الآخر، له كديد ككديد الطحين - أى لذلك الجمع غبارٌ ثائرٌ من الأرض لشدة وطه الأقدام؛ لأن الكديد الترابُ الناعمُ إذا وُطئَ ثارَ غبارُهُ
- قال: حتى دخلنا المسجد، فنظرت قريشٌ إلىَّ وإلى حمزة فأصابتهم

(١) البخارى (كتاب التفسير - باب (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا).

٨٦/٦، ومسلم (كتاب الجهاد والسير - باب إِزَالَةُ الْأَضْمَامِ مِنْ حَوْلِ الْكَعْبَةِ) ١٧٣/٥ رقم (٤٧٢٥).

(٢) السيرة الحلبية ٢/ ٢١، والخصائص الكبرى للسيوطى ١/ ٢٢٠.

كآبة لم يصبهم مثلها ، فطاف صلى الله عليه وسلم بالبيت وصلى الظهر معلنا، ثم رجع ومن معه إلى دار الأرقم، فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ الفاروق، فرق الله بي بين الحق والباطل^(١).

وسئل ابن عمرو بن العاص عن أشد شيء صنعته المشركون بالنبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: بينا النبي - صلى الله عليه وسلم - يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله الآية .

وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال: بينا النبي - صلى الله عليه وسلم - ساجد وحوله ناس من قريش، جاء عقبة بن أبي معيط بسلي جزور، فحذفه على ظهر النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فلم يرفع رأسه ، فجاءت فاطمة - عليها السلام - فأخذته من ظهره، ودعت على من صنع فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم عليك الملامن قريش أبا جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف» .

فرايتهم قتلوا يوم بدر، فألقوا في بئر غير أمية تقطعت أوصاله ، فلم يلق في البئر.

وعن خباب قال: أتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو متوسد بردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة فقلت: ألا تدعو الله؟ ففعد وهو محمر وجهه فقال: « لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط

الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ،
 وَيُوضَعُ الْمُنْشَارُ عَلَى مَفْرَقِ رَأْسِهِ ، فَيُشَقُّ بِأَثْنَيْنِ ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ
 دِينِهِ ، وَلَيَّبَتَّمَنَ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكِيبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتِ
 مَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ^(١) .

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة في عمرة القضاء هو
 وأصحابه وكانت حالها على ما هي عليه من الشرك، وقد بشرهم الله
 تعالى بدخول مكة معتمرين بقوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ
 لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ
 لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾
 [سورة الفتح: الآية ٢٧].

وفى عمرة القضاء أمر النبي صلى الله عليه وسلم من معه من أصحابه
 أن يظهروا قوتهم ما استطاعوا حتى يرهبوا مشركى مكة؛ فعن ابن عباس
 أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَقَامَ فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ ثَلَاثًا^(٢) ، وَعِنَهُ
 أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ : قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَأَصْحَابُهُ فَقَالَ
 الْمُشْرِكُونَ: إِنَّهُ يَقْدَمُ عَلَيْكُمْ وَقَدْ وَهَنَهُمْ حُمَى يَثْرِبَ. وَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ -صلى
 الله عليه وسلم- أَنْ يَرْمُلُوا الْأَشْوَاطَ الثَّلَاثَةَ ، وَأَنْ يَمْسُؤَا مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ ،
 وَلَمْ يَمْنَعُهُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ أَنْ يَرْمُلُوا الْأَشْوَاطَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِبْقَاءَ عَلَيْهِمْ^(٣) ، وَعِنَهُ

(١) البخارى (كتاب مناقب الأنصار - باب ما لقي النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه
 مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ) ٤٥/٥ رقم (٣٨٥٢).

(٢) رواه أبو داود (كتاب المناسك - باب المقام فى العمرة) ١٥٥ / ٢ رقم (١٩٩٩).

(٣) رواه البخارى (كتاب الحج - باب كيف كان بدء الرَّمْلِ) ١٥٠ / ٢ ، رقم (١٦٠٢).

أَنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا سَعَى النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْبَيْتِ وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ لِيُرَى الْمُشْرِكِينَ قُوَّتَهُ ^(١). وَعِنَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: رَجِمَ اللَّهُ امْرَأً أَرَاهُمْ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً، ثُمَّ اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، وَخَرَجَ يَهْرُولُ وَيُهْرُولُ أَصْحَابُهُ مَعَهُ حَتَّى إِذَا وَارَاهُ الْبَيْتُ مِنْهُمْ وَاسْتَلَمَ الرُّكْنَ الْيَمَانِيَّ، مَشَى حَتَّى يَسْتَلِمَ الرُّكْنَ الْأَسْوَدَ ثُمَّ هَرَوْلَ كَذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَطْوَافٍ وَمَشَى سَائِرَهَا ^(٢).

وضرب أصحابُ النبي صلى الله عليه وسلم أبدعَ الأمثلةِ في التعاضيسِ السِّلْمِيَّةِ مع الآخر، حتى في ظل الاضطهادِ والتعذيبِ صبروا على الأذى وقاوموا بالثباتِ على عقيدتهم ودعوة الآخرين للاقتناع بها، فلقد وجد أصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم من صنوفِ العذابِ ألواناً على يدِ مشركي قريش ، فكان أمرُ رسولِ الله لهم بالصبرِ وقوة التحمُّلِ حتى يجعلَ اللهُ لهم مخرجاً.

فإن قريشاً كانت عدواً على من أسلم، ووثبت كلُّ قبيلةٍ على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضربِ والجوعِ والعطشِ وبرمضاءِ مكة إذا اشتدَّ الحرُّ، يفتنونهم عن دينهم، فمَنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومَنهم من يَصْلُبُ لهم، وَيَعْصِمُهُ اللهُ منهم، ومنهم:

١ - بلال بن رباح رضى الله عنه؛ حيث كان أمية بن خلف يُخْرِجُهُ إِذَا حَمِيَتِ الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم

(١) رواه البخارى (كتاب المغازى باب غُمْرَةَ الْقَضَاءِ) ١٤٢/٥ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣٧٠/٢ .

يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمدٍ وتعبد اللات والعزى ؛ فيقول وهو فى ذلك البلاء: أحدٌ أحدٌ.

وروى البلاذرى عن عمرو بن العاص قال: مررت ببلال وهو يعذبُ فى الرمضاء ولو أن بضعة لحمٍ وُضعت عليه لِنَضَجَتْ ، وهو يقول: أنا كافرٌ باللات والعزى. وأمىةٌ مغتاط عليه ، فيزيده عذابا ، فيقبلُ عليه فيدغُتُ فى حلقه فيغشى عليه ثم يفيقُ.

وروى ابنُ سعدٍ عن حسانِ بن ثابتٍ رضى الله تعالى عنه قال : حججتُ فرأيتُ بلالاً فى حبلٍ طويلٍ يمدُّه الصبيانُ وهو يقولُ : أحدٌ أحدٌ أنا أكفرُ باللات والعزى وهبلٌ ونائلةٌ وبوانة . فأضجعه أمىةٌ فى الرمضاء .

فمرَّ به أبو بكر الصديقُ رضى الله عنه يوماً ، وهم يصنعون ذلك به . فقال لأمىة بن خلف : ألا تتقى الله فى هذا المسكين ؟ حتى متى ؟ قال أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى ؛ فقال أبو بكر . أفعل عندي غلامٌ أسودٌ أجلدُ منه وأقوى ، على دينك ، أعطيكه به قال قد قبلتُ فقال هو لك . فأعطاه أبو بكر الصديقُ رضى الله عنه غلامه ذلك وأخذهُ فأعتقه^(١).

٢ - عمار بن ياسر وأبوه وأمه رضى الله عنهم ؛ حيث أخذَه المشركون فلم يتركوه حتى سبَّ النبي صلى الله عليه وسلم ودكر آلهتهم بخير ، ثم تركوه ، فلما أتى رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما وراءك ؟ » . قال : شرَّ يا رسولَ الله ، ما تركتُ حتى نلتُ منك ودكرتُ

آلِهِتُهُمْ بِخَيْرٍ. قَالَ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟». قَالَ: مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ. قَالَ: «إِنَّ عَادُوا فَعُدُّ»^(١). وهو الذى نزل فى شأنه قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَنْ يَكُنَ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة النحل: الآية ١٠٦].

ومن قبل ذلك صبرت أم عمار السيدة سمية رضى الله عنها على عذاب المشركين حتى مر بها أبو جهل فطلب منها سب النبى فرفضت ، فطعنها فى حياتها، فاستشهدت، فكانت أول شهيدة فى الإسلام، واستشهد كذلك زوجها ياسر، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر عليهم فيأمرهم بالصبر ويبشرهم بالجنة؛ فيقول: «صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةَ»^(٢).

* * *

(١) المستدرک على الصحيحين ٣٨٩/٢ . والسنن الكبرى للبيهقى ٢٠٨/٨.

(٢) شعب الإيمان (شرح المرء بدينه حتى يكون قذفه فى النار أحب إليه من الكفر) ١٧٢/٣.

النموذج الثاني : مجتمع الحبشة :

إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قدّم للإنسانية نموذجاً كاملاً من نماذج التعايش والتكليف مع الآخر، وجاء نموذجُ الهجرة إلى الحبشة والحياة بين أهلها تطبيقاً لوسيلة من الوسائل التي مارسها كثيرٌ من الأنبياء قبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فلقد قصَّ القرآن الكريمُ على رسولِ الله تجارب كثيرٍ من الأنبياء السابقين، وكيف أنهم لجأوا إلى الهجرة كوسيلةٍ للنجاة بمن معهم من المسلمين من بطشٍ وتعذيبٍ المشركين لهم.

ولكنَّ الفريدَ في تجربة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين وقدوة المسلمين إلى يوم الدين أنه أمر أصحابه بالهجرة والفرار بأنفسهم وذويهم من بطشٍ قريشٍ لكنه لم يفكر في الهجرة بنفسه وأهله إلا بعد أن أتم أمرين :

أولهما : أنه استنفذ مع قريش كلَّ الوسائل الدعوية لهدايتهم إلى الدين حتى يكونوا أصحابَ الفخر والسبق بالإسلام ، فإن مكة كانت بلدَه وفيها قومه وأهله .

وثانيهما : أنه صلى الله عليه وسلم لم يهاجر إلا بعد أن اطمأن على مُعظم أصحابه وأنهم قد هاجروا واستقروا في المدينة، وأن المدينة قد دخل الإسلامُ كلَّ بيتٍ فيها وأصبحت موطناً آمناً وملاذاً واستقراراً للدين والمؤمنين من أصحابه.

وأما الهجرة إلى الحبشة، فإن الحبشة كانت كمكة مجتمعاً غيرَ مسلم، ولكنه كان يكفلُ للأقلية المسلمة فيه العدل ، ويقدم لهم الحماية والحرية الدينية.

وكانت الحبشة مظلة العدل والحماية لكل من يلجأ إليها من المستضعفين وذوى الدعوات النافعة الصالحة التى تبني ولا تهدم وتحبى النفوس ولا تُفنيها، وهذا ما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأذن لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة.

فنموذجُ الحبشة هو النموذجُ أو الحالةُ التى يكونُ فيها المسلمون أقليةً تعيش فى مَنَاحٍ من الأمانِ والعدلِ والحريةِ فى ظلِ دولةٍ غيرِ إسلاميةٍ. فكيف كانت حياةُ الصحابةِ فى الحبشة ؟

اشتد بطشُ مشركى مكة وتنكيلُهُم بالقلَّةِ المسلمةِ، فلَمَّا رأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما يصيبُ أصحابه من البلاءِ من أهل مكة وتعذيبهم عندما أظهروا الإسلامَ، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة ؛ فإن بها ملكا عظيما لا يُظلمُ عنده أحدٌ ، وهى أرضٌ صدقٌ ، حتى يجعلَ الله لكم فرجا مما أنتم فيه»^(١). فخرج قومٌ، وسترَ الباقون إسلامهم.

وكانت أرضُ الحبشةِ متجرا لقريش، فخرج عند ذلك أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافةَ الفتنةِ وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرةٍ فى الإسلام، وكانوا أحدَ عشرَ نفرًا وأربعَ نسوةٍ متسللين سرا، فصادفَ وصولهم إلى البحر سفينتين للتجار فحملوهم فيهما إلى أرضِ الحبشةِ، وكان مَحْرَجُهُم فى رجب من السنةِ الخامسةِ من النبوةِ ، وخرجت قريشٌ فى آثارهم فقاتلوهم.

وكان أولُ من خرج عثمانُ بن عفانُ معه امرأتهُ رقية بنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، والزبيرُ بن العوام، وعبدُ الرحمن بن عوفٍ،

(١) السيرة النبوية : ٣٢١/١.

وجعفر بن أبي طالب، وأبو سلمة وامرأته أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية، وعبد الله بن مسعود فيمن خرج معهم رضى الله عنهم، فأقاموا عند النجاشي شعبان ورمضان، وقدموا في شوال ولم يدخل أحدهم مكة، فأذنتهم عشائرتهم، فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج مرة أخرى، فخرجوا في جماعة من رجال ونساء.

وكان جميع من لحق بأرض الحبشة سوى من ولد بها وأبنائهم الذين خرجوا بهم صغاراً نيفاً وثمانين رجلاً وإحدى عشرة امرأة، ولما سمعوا بمهاجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً وثمان نساء، فمات منهم رجل بمكة وحبس سبعة، وشهد بداراً منهم أربعة وعشرون.

فَعَنْ أُمِّ سَلْمَةَ بِنْتِ أَبِي أُمَيَّةَ بِنِ الْمُغِيرَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهَا قَالَتْ: لَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْنَا مَكَّةُ وَأَوْدَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَفَتِنُوا وَرَأَوْا مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ فِي دِينِهِمْ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَعَمَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ مِمَّا يَنَالُ أَصْحَابَهُ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «إِنَّ بَارِضَ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظَلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ فَالْحَقُّوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ». فَخَرَجْنَا إِلَيْهَا أَرْسَالًا حَتَّى اجْتَمَعْنَا بِهَا فَنَزَلْنَا خَيْرَ دَارٍ إِلَى خَيْرِ جَارٍ أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا وَلَمْ نَخْشَ مِنْهُ ظُلْمًا^(١).

وَعَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ ، جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ

(١) البيهقي في السنن الكبرى ٩/٩ ، رقم (١٨١٩٠) .

النَّجَاشِيِّ ، أَمِنَا عَلَى دِينِنَا ، وَعَبَدْنَا اللَّهَ تَعَالَى لَا نُؤَدِي وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ .

فَرَحَ الْمُهَاجِرِينَ بِنُصْرَةِ النَّجَاشِيِّ عَلَى عَدُوِّهِ :

قَالَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أُمُّ سَلْمَةَ : فَوَاللَّهِ إِنَّا لَعَلَى ذَلِكَ إِذْ نَزَلَ بِهِ رَجُلٌ مِنَ الْحَبَشَةِ يُنَازِعُهُ فِي مَلِكِهِ . قَالَتْ : فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُنَا حَزَنًا حَزَنًا قَطُّ كَانَ أَشَدَّ عَلَيْنَا مِنْ حُزْنِ حَزَنَاهُ عِنْدَ ذَلِكَ ؛ تَخَوَّفَا أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى النَّجَاشِيِّ ، فَيَأْتِي رَجُلٌ لَا يَعْرِفُ مِنْ حَقَّنَا مَا كَانَ النَّجَاشِيُّ يَعْرِفُ مِنْهُ . قَالَتْ : وَسَارَ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ ، وَبَيْنَهُمَا عَرَضُ النَّيْلِ ، قَالَتْ : فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ : مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ حَتَّى يَحْضُرَ وَقِيعَةَ الْقَوْمِ ثُمَّ يَأْتِينَا بِالْخَبَرِ ؟ قَالَتْ فَقَالَ الزَّبِيرُ بْنُ الْعَوَّامِ : أَنَا . قَالُوا : فَأَنْتَ . وَكَانَ مِنْ أَحَدِثِ الْقَوْمِ سَنًا . قَالَتْ : فَتَقَحُّوا لَهُ قُرْبَةً فَجَعَلَهَا فِي صَدْرِهِ ثُمَّ سَبَحَ عَلَيْهَا حَتَّى خَرَجَ إِلَى نَاحِيَةِ النَّيْلِ الَّتِي بَيْنَهَا مُلْتَقَى الْقَوْمِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى حَضَرَهُمْ . قَالَتْ : فَدَعَوْنَا اللَّهَ تَعَالَى لِلنَّجَاشِيِّ بِالظُّهُورِ عَلَى عَدُوِّهِ وَالتَّمَكِينِ لَهُ فِي بِلَادِهِ . قَالَتْ : فَوَاللَّهِ إِنَّا لَعَلَى ذَلِكَ مُتَوَقِّعُونَ لِمَا هُوَ كَائِنٌ إِذْ طَلَعَ الزَّبِيرُ وَهُوَ يَسْعِي ، فَلَمَعَ بِثَوْبِهِ وَهُوَ يَقُولُ : أَلَا أَبْشُرُوا ، فَقَدْ ظَفَرَ النَّجَاشِيُّ ، وَأَهْلَكَ اللَّهُ عَدُوَّهُ وَمَكَّنَ لَهُ فِي بِلَادِهِ . قَالَتْ : فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُنَا فَرَحَنَا فَرِحَةً قَطُّ مِثْلُهَا . قَالَتْ : وَرَجَعَ النَّجَاشِيُّ ، وَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ عَدُوَّهُ وَمَكَّنَ لَهُ فِي بِلَادِهِ وَاسْتَوَسَّقَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْحَبَشَةِ ، فَكُنَّا عِنْدَهُ فِي خَيْرِ مَنْزِلٍ حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِمَكَّةَ^(١) .

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٣٤-٣٣٨ .

وآثر كثيرٌ من الصحابة البقاء في الحبشة حتى بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة. فإنه لما التجأ المهاجرون الأولون إلى الحبشة فأكرمهم النجاشي وبقوا هنالك آمنين من اضطهاد قريش، ولما هاجر رسول الله إلى المدينة، عاد أربعون من المهاجرين والتحقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وبقي منهم في الحبشة نحو خمسين أو ستين تحت حماية النجاشي.

ومن الصحابة الذين آثروا البقاء في الحبشة حتى بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة:

جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه ابن عم النبي وهو أسنُّ من أخيه عليٍّ بعشر سنين، هاجرَ الهجرتين، وهاجرَ من الحبشة إلى المدينة، فوآفى المسلمين وهم على خيبر إثر أخذها.

وكان معه أيضا أبو موسى الأشعري رضى الله عنه، قدم المدينة بعد فتح خيبر، وصادفت سفينته سفينة جعفر بن أبي طالب، فقدموا جميعاً، وكان معهم أيضا عتبة بن مسعود الهذلي أخو عبد الله بن مسعود لأبويه رضى الله عنهما.

النموذج الثالث : المدينة فى المرحلة الأولى :

فى هذه المرحلة المبكرة من بناء الدولة الإسلامية ؛ نجد مجتمعاً فى طور التشكيل ، وحكومة أو سلطة فى مهده التكوين ، فالأنصار وهم أهل البلاد يزاحمهم المهاجرون ، ومنذ فترة قريبة كانت الصراعات والنزاعات بين قبائل و بطون المهاجرين من مكة تعمل عملها ، وكذلك كانت هناك نزاعات بين الأوس والخزرج من الأنصار .

ولذلك كان هناك ضرورة لأن تعمل الدولة على تأليف قلوب الأنصار بعضهم البعض وكذلك المهاجرين ثم المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار . وبمجرد أن وصل النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وبدأ فى وضع الأساس لدولته تكونت فئة جديدة ومجموعة مناهضة للدولة وهى المنافقون ، يظهرن الموالاة والإيمان ويُبطنون العداوة والكيد والمحاربة . وبالرغم من أن الإيمان قد دخل كل بيت من بيوت الأنصار إلا أنه ومن الطبيعى فى هذه الفترة أن يكون هناك فئة من أهل المدينة يتمسكون بدينهم وشركهم .

هذا بالإضافة إلى فصيل كبير من أهل المدينة من اليهود ، لهم كيان متجمع .. كيان متماسك ، ولهم قيادات وحصون وسلاح وعتاد ، ولهم تجارات وزراعات دائرة فى المدينة وخارجها ، وقد لعبوا دورهم المعتاد من الدس والوقيعه بين أهل المدينة من الأوس والخزرج ، قسّموا أنفسهم فالبعض يناصر الأوس ويمدّهم بالسلاح والآخري يناصر الخزرج ويمدّهم بالسلاح ، وهم يستقون يوماً بعد يوم ، ويكسبون من وراء تجارة السلاح والمؤون ، ويحتفظون بقوتهم فى حين تنهار قوة العرب من أهل المدينة .

كيفية تعامل وتعايش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مع هذه الأصناف؟

والإجابة عن ذلك تتجلى في الخطوات المرتبة التي فعلها النبي صلى الله عليه وسلم:

أولاً: بناء المسجد.

ثانياً: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

ثالثاً: توقيع الوثيقة وموادة اليهود: وذلك في صحيفة المدينة، وقد اشتملت بنودها على أسْمى مظاهر التعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم.

١ - حددت الصحيفة مفهوم الدولة التي تضم جماعة من الناس ينتمون إلى أديان مختلفة وثقافات مختلفة وأعراق مختلفة وتجمعوا من أماكن مختلفة.

٢ - حلت الصحيفة تشابك العلاقات الإنسانية، فهناك علاقة القرابة والدم وهناك علاقة الدين وهناك علاقة الجوار وهناك علاقة المصالح المشتركة، فإن عاشت هذه العلاقات جميعها في وئام وتوافق استطاع الإنسان أن يحقق التعايش والسلام الاجتماعي.

٣ - اعتبرت الصحيفة اليهود من مواطني الدولة الإسلامية وعنصرًا من عناصرها؛ حيث قالت: وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين؛ فرابطة الدين لا تتعارض مع رابطة المواطنة، بل إن رابطة المواطنة وما تُلزمنًا به من احترام للآخر وتقدير لخصوصياته ودينه وعقيدته يوجبها علينا الدين.

٤ - الاحتكامُ والمرجعيةُ فى الدولة الإسلامية يجب أن يكون لله ولرسوله؛ حيث قالت: وَإِنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدِيثٍ أَوْ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادُهُ فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا الاحتكامُ تُوجبه عدةُ أمور:

أولاً: نصت المعاهدةُ على ذلك، فعلى من يوقع على هذه الصحيفة أن يلتزمَ بما فيها، والنصُّ على المرجعيةِ وتحديدِ مصدرِ القضاء والفصلِ بين الناسِ لازمٌ من لوازمِ التعايشِ، ولولا النصُّ على ذلك فى دستور الجماعة لحدث الصراعُ والخلافُ بين الناسِ عند كلِّ حادثةٍ، فمن يحكمُ فيها ومن يكونُ حكمه لازماً ومنفذاً على الجميعِ سوف تكونُ معضلةً عند كلِّ حادثةٍ تحولُ دون الفصلِ فيها وإنهائها.

ثانياً: إن تحولَ معظمِ سكانِ المدينةِ إلى الإسلامِ ودُخولهم فى طاعةِ الشرعِ وطاعةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم والنزولِ على حكمه والرضى به، يجعلُ من المنطقي أن يكونَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هو المرجعيةُ لكلِّ أهلِ المدينةِ والحاكمِ فيما يحدثُ من شجارٍ أو اعتداءٍ يكون طرفاه من أهلِ الصحيفةِ.

ثالثاً: أنزل الله عز وجل على رسوله قانوناً واضحاً ثابتاً منصوصاً عليه، يمكنُ للجميعِ معرفتهُ، والنظرُ فيما إذا كان احتكامه على وفقه وبمقتضاه سيحقق له العدلَ والمساواةَ أم لا.

أما اليهود فإن ديانتهم مغلقة، وكتابهم يكاد يكونُ سرياً لا يعلمه كثيرُ من أهله، وشريعتهم بآدٍ كثيرٍ من أحكامها، وإنما فيها بعضُ العبادات.

ومن البين أن اليهود لن يُلزموا بمقتضى هذه المعاهدة أن يرجعوا إلى قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكمه إلا فيما يحدث من خلاف أو اشتجار بينهم وبين المسلمين، وأما الفصل فيما بينهم فى قضاياهم وأحوالهم الشخصية المنصوص عليها فى دينهم، فإنهم مخيرون .. لهم أن يحتكموا إلى التوراة ويقضوا بما فيها، يتولى الفصل فى ذلك كبيرهم أو حبرهم، ولهم أن يحتكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقبلوا بحكمه ويلتزموا به، قال تعالى: ﴿سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٢]، قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسيره لهذه الآية الكريمة: كَانَ بَنُو النَّضِيرِ إِذَا قَتَلُوا قَتِيلًا مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ أَدَّوْا إِلَيْهِمْ نِصْفَ الدِّيَةِ وَإِذَا قَتَلَ بَنُو قُرَيْظَةَ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ قَتِيلًا أَدَّوْا إِلَيْهِمُ الدِّيَةَ كَامِلَةً . فَسَوَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُمُ الدِّيَةَ كَامِلَةً.

فإن بنى النضير وبنى قريظة قد اختلفوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهم فى دية القتلى بينهما، فقد كانت بنو النضير أعز من بنى قريظة، فكانت تفرض عليهم دية مضاعفة لقتلاها، فلما ظهر الإسلام فى المدينة امتنعت بنو قريظة عن دفع الضعف وطالبت بالمساواة فى الدية، فنزلت الآية: ﴿وَكَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ

يَحْكُمُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٥].
 وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: عَدَا يَهُودِيٌّ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى جَارِيَةٍ ، فَأَخَذَ أَوْضَاحًا كَانَتْ عَلَيْهَا وَرَضَخَ رَأْسَهَا ،
 فَاتَى بِهَا أَهْلَهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهِيَ فِي آخِرِ رَمَقٍ ،
 وَقَدْ أَصْمَتَتْ ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « مَنْ
 قَتَلَكَ؟ فُلَانٌ » . لِغَيْرِ الَّذِي قَتَلَهَا ، فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا أَنْ لَا ، قَالَ: فَقَالَ
 لِرَجُلٍ آخَرَ غَيْرِ الَّذِي قَتَلَهَا ، فَأَشَارَتْ أَنْ لَا ، فَقَالَ: « فُلَانٌ » . لِقَاتِلِهَا
 فَأَشَارَتْ أَنْ نَعَمْ ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَرَضِخَ
 رَأْسَهُ بَيْنَ حَجْرَيْنِ (١) .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ
 اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَأَمْرًا قَد زَنَبَا . فَقَالَ
 لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ فِي شَأْنِ
 الرَّجْمِ ؟ » فَقَالُوا : نَفَضُحُهُمْ وَيُجْلِدُونَ . فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ : كَذَبْتُمْ ،
 إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ . فَاتُوا بِالتَّوْرَةِ فَنَشَرُوهَا ، فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ
 الرَّجْمِ ، فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا . فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ : ارْفَعْ يَدَكَ .
 فَرَفَعَ يَدَهُ فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ . فَقَالُوا : صَدَقْتَ يَا مُحَمَّدُ ، فِيهَا آيَةُ
 الرَّجْمِ . فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَجِمَا (٢) .

(١) صحيح البخارى (كتاب الطلاق / باب الإِشَارَةِ فِي الطَّلَاقِ وَالْأُمُورِ) ٥١/٧ رقم

(٥٢٩٥) .

(٢) صحيح البخارى (كتاب المناقب / باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى (يَمْرُقُونَ كَمَا يَمْرُقُونَ أَبْنَاءَهُمْ

وَإِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لِيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) ٢٠٦/٤ ، رقم (٣٦٣٥) .

٥ - إن صحيفة المدينة - بالنسبة لنا - ليست فقط مجرد معاهدة بين المسلمين واليهود في المدينة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنها بمثابة دستور شرعي ومنهاج نبوي ، حَمَلَهُ النبي صلى الله عليه وسلم من القواعد والمبادئ العامة التي تَخْرُجُ به عن نطاق المعاهدة الخاصة ، فهي قواعد تمثل المقاصد الكلية للشرع والدين الإسلامي ، مقاصد تحقق العدالة والمساواة التامة بين الإنسان وأخيه الإنسان.

أ - فهي تؤكد على حق كل إنسان سواء كان في الجوار أم لا ، سواء كان داخلاً في المعاهدة أم لا ، فإنه إنسان له الحق أن ينعم بالكرامة الإنسانية التي وهبها المولى عز وجل لجنس الإنسان حيث قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٠] ، وجاء في الصحيفة : « وَإِنَّ الْجَارَ كَالنَّفْسِ غَيْرِ مُضَارٍّ وَلَا آثِمٍ » .

وعليه فالمحافظة على الجار واحترام حقوقه وحمايته من الشر تجب على أهل هذه الوثيقة كما يجب حفظ النفس ورعاية حقوقها .

ب - وأقرب الصحيفة مبدأ المساواة ، وأن ذمة الله واحدة ، فمن أعطاها فهي مُحترمة من كل المؤمنين ، سواء كان من أعطاها أعلاه قدرا ومنزلة أو أدناهم ؛ حيث قالت : « وَإِنَّ ذِمَّةَ اللَّهِ وَاحِدَةٌ يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ » . وقالت : « وَإِنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ » .

ومبدأ المساواة في الإنسانية قد علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في أحاديث شريفة كثيرة ، منها :

• ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الأنبياء إخوة من علاتٍ وأمّهاتهم شتى ودينهم واحد»^(١).
وعن أبي نضرة رضي الله عنه أنه سمع خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق قال: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت». قالوا: بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم قال: «أى يوم هذا». قالوا: يوم حرام. ثم قال: «أى شهر هذا». قالوا: شهر حرام. ثم قال: «أى بلد هذا». قالوا: بلد حرام. قال: «فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. أبلغت». قالوا: بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: «ليبلغ الشاهد الغائب»^(٢).

ج - ونصت كذلك الصحيفة على مبدأ الحرية في الاعتقاد والتعبد، حيث قالت: «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليتهم، وأنفسهم، إلا من ظلم وأنتم».

وهذا تطبيق لما قرره القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ بَيَّنَّ الرُّسُلُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٦]

(١) البخاري (كتاب أحاديث الأنبياء - باب (وأذكر في الكتاب مزيم إذ انتبذت من أهلها) ١٦٧/٤، ومسلم (كتاب الفضائل - باب فضائل عيسى عليه السلام) ٩٦/٧، رقم (٦٢٨١).

(٢) رواه أحمد في مسنده ٤٧٤/٣٨ رقم (٢٣٤٨٩).

د - ونصت الصحيفةُ في بدايتها على أنه على كل طائفة أن تتحمل المسؤوليةَ الماديةَ عن أتباعها، فهي تتحمل فداء أسيرها ، وهم يشتركون في معاقبتهم .

ولا تلزمُ الصحيفةُ طائفةً أن تساعدَ أو تدفعَ من مالها لغيرها لا في عقلٍ ولا في فداءٍ، ولكنَّ الصحيفةَ ألزمتِ الجميعَ تحمُّلَ مسؤوليةِ التضامنِ الاجتماعيِّ والتكافلِ فيما بينهم، لأن القاعدةَ تقولُ: إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرَكُونَ مُفْرَحًا بَيْنَهُمْ أَنْ يُعْطَوْهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلِ.

فالصحيفةُ لا تُلزمُ طائفةً من المؤمنين أن يتحمَّلوا المسؤوليةَ الماديةَ عن طائفةٍ أخرى ولكن الإيمانَ يُوجبُ ذلك، فالمؤمنون لا يتركون مفرحاً بينهم دون أن يساعده ويعاونوه.

وهذه القاعدةُ ذَكَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا:

ما وراه أَبُو مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا». وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ^(١).

وَعَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَّى»^(٢).

هـ - ثم وضعتِ الصحيفةُ دعائمَ العدلِ، فالمؤمنون المتقون مطالبون

(١) رواد البخارى (كتاب الأدب - باب تَعَاوُنِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا) ١٢/٨ ، رقم (٦٠٢٦).

(٢) مسلم (كتاب البر والصلة والآداب - باب تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاوُدِهِمْ) ٢٠/٨

، رقم (٦٧٥١).

بالعدل وإقامته ومطالبون بمجاهدة الظلم وردّه عن وقوعه عليه، وهم جميعاً يدُ على من ظلمَ ولو كان ولدَ أحدهم؛ حيثُ قالت: «وإنَّ المؤمنِينَ المتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْمٍ أَوْ إِثْمٍ أَوْ عُذْوَانٍ، أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِمْ». وقالت: «وَإِنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ».

وهذه العبارة تُعدُّ من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم، فإن النصر في الإسلام للمظلوم أيًّا كان دينه وأيًّا كان عرقه.

وجاءت هذه القاعدة تطبيقاً ومصدّقاً لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوَّا أَوْ تَعَرَّضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٥]، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ تِ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الحجرات: الآية ٩-١٠].

فكانت العدالة من أبرز ما تأسست عليه هذه الوثيقة، وتمثلت في

توافق الحقوق والواجبات وتناسقها إذ تضمنت حقوق الأفراد جميعاً في ممارسة الشعائر الدينية الخاصة، وحقوقهم في الأمن والحرية وصون أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ودور عبادتهم.

و- ونصت كذلك الصحيفة على قاعدة المسؤولية الشخصية بمعنى أن كل إنسان يتحمل مسؤولية جرمه وما كسبه، يُسأل عنه ويُؤاخذ به، لا يحل مؤاخذه الجماعة بجريرة الفرد؛ حيث قالت: «إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثَمَ، فَإِنَّهُ لَا يُوتَغَ إِلَّا نَفْسُهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ»، وقالت: «وَإِنَّهُ لَمْ يَأْتُمْ امْرُؤٌ بِحَلِيفِهِ»، وقالت: «لَا يَكْسِبُ كَاسِبٌ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ».

ز - ونصت على قاعدة المسؤولية الجماعية، بمعنى أن الجماعة كلها مسئولة عن محاصرة الظالم أو الجاني ومحاكمته والحرص على نواله العقاب على ما اقتترف من الجرم؛ حيث قالت: «وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةً ظَلَمَ أَوْ إِثْمَ أَوْ عُدْوَانَ، أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَلَدٌ أَحَدِهِمْ»، وقالت: «وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لَهُمْ إِلَّا قِيَامٌ عَلَيْهِ»، وقالت: «وَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَقْرَبَ بِمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَنْصُرَ مُحَدَّثًا وَلَا يُؤْوِيَهُ، وَأَنَّهُ مَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ فَإِنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ اللَّهِ وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ».

ح - وفي نهاية الصحيفة أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحرية وأنها مكفولة للجميع ينعمون بها آمنين من كل سوء أو شر؛ حيث قالت: «وَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنًا، وَمَنْ قَعَدَ آمِنًا بِالدِّينَةِ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ أَثَمَ، وَإِنَّ اللَّهَ جَارٌ لِنَبِيِّهِ وَاتَّقَى، وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

فمن رَفَضَ الانضمامَ للصحيفةِ فإنه حرٌّ وآمنٌ، إنْ خَرَجَ من المدينةِ فهو آمنٌ، وإنْ قَعَدَ فيها فهو آمنٌ شريطةَ ألا يَظَلِمَ أو يعتدى على الجماعةِ. وفي هذا البند الأخير إشارةٌ أن هذه الصحيفة لم تكن صحيفةً خاصةً مغلقةً على من انضم إليها، بل إن كثيراً من بُنُودِ الصحيفة كانت قواعدَ كليةً ومفاهيمَ إسلاميةً ومبادئَ في التعايشِ مع الآخرِ، قبل الوثيقةِ وبعدها، أى فى وجود وثيقة تعايشٍ مدونةٍ وموقعٍ عليها وبدون وجودِ هذه الوثيقةِ فإن المسلمين يلتزمون بالمبادئِ العامةِ التى نصت عليها الوثيقةُ فى التعايشِ مع الآخرِ؛ لأن أغلبها قواعدُ كليةٌ نصت عليها الكتابُ والسنةُ فى كثيرٍ من مواضعها، فهى قواعدٌ فى احترام حقوق الإنسانِ والأكوانِ، وهى تتحدثُ عن المساواةِ فى الإنسانيةِ، وتتحدثُ عن الكرامةِ الإنسانيةِ، وحرمةِ العِرضِ والمالِ والدينِ، وتحدثتُ أيضاً عن العدلِ وإقامةِ الحقِ ولو على أنفسنا، وهى أمورٌ معلومةٌ من دينِ الإسلامِ ضرورةً.

* * *

النموذج الرابع : المدينة فى عهدىها الأخير :

نموذجُ الدولة الإسلامية مكتملة الأركان، من حيث النظام العام والسياسة الداخلية والخارجية، ومن حيث التركيبة المجتمعية حيث تحول أغلبية السكان إلى الإسلام، وليس صحيحاً أن يُظن أن المدينة فى عهدىها الأخير كانت أحادية لا تنوع فى سكانىها من حيث الدين ، فإن الإسلام والمسلمين لا يعترفون أو يُقرون بمسألة تطهير الأرض وتوحيد الدين وإكراه الناس على الدُخول فى دينهم أو الرحيل من أرضهم.

فالمدينة حتى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيها يهودٌ يبيعون ويتاجرون ويعيشون بسلام، نعم لم يُعد لليهود فى المدينة فى عهدىها الأخير تكتلات سكنية أو حصون حربية منفصلة ومغلقة كما كان فى العهد الأول، ولكن كان هناك يهودٌ مدنيون بمعنى أفرادٍ غير محاربين يسكنون المدينة ويعيشون مع أهلها.

وكذلك كان فى المدينة منافقون حتى بعد وفاة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر عنه حاملُ سره حذيفة بن اليمان، حيث ترك رسول الله للوقت والزمان أن يعمل دورة فى القضاء على فتنهم داخل المدينة.